الجانب الأخلاقي في حزب سبح
دراسة تطبيقية

د. عصام بن دخيل الله بن حامد الحربي

أستاذ القراءات المشارك بجامعة أم القرى

ملخص البحث

يهدف هذا البحث – في جانبه النظري – إلى محاولة إلقاء الضوء على مكانة الأخلاق في القرآن الكريم، ثم استقصاء الأخلاق المأمور بها والمنهي عنها في حزب سبح في جانبه التطبيقي.

وقد قسمته إلى مقدمة: بينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع فيه.

ثم أتبعتها بفصلين: الأول: في تعريف الأخلاق وأنواعها ومكانتها في الإسلام، وفيه ثلاثة مباحث: الأول : في تعريف الأخلاق، والثاني : في أنواع الأخلاق، والثالث : في مكانة الأخلاق في الإسلام.

والفصل الثاني : الأخلاق في حزب سبح ، وفيه ثلاثة مباحث: الأول : في الأخلاق المأمور بها، والثاني : في الأخلاق المنهي عنها، والثالث: في مناسبة هذه الأخلاق للعهد المكي.

ومن أهم ما خلصت إليه من نتائج: أن القرآن الكريم قرن الأخلاق بالعقيدة في بعض المواضع، وأن أهمية الأخلاق لا تقل عن أهمية العقيدة من جهة طلب الحصول، ومن جهة شرط التمكين والاستقامة، وأن القرآن اهتم بالأخلاق وتركيزها في نفوس المسلمين من البداية.

مقدمة:

الحمد لله الهادي إلى خير الأخلاق ، لا يهدي إليها سواه ، الذي دلنا في كتابه على أجمل الشمائل وأكملها ، وجعلها قرينة للعقيدة في غير ما آية من كتابه .

والصلاة والسلام على من غاية ما وصفه به الواصفون أن قالوا كان خلقه القرآن ، الذي فاز بالذروة العليا ، والمكانة المثلى في الأخلاق ، حيث جمع أكملها وأعلاها إلى شمائله – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله ذوي النفوس الزكية ، وأصحابه ذوي الأخلاق الرفيعة ، صلاة وسلاما دائمين أبد الآبدين .

وبعد: فهذه نبذة كتبتها في الأخلاق القرآنية آثرت أن تكون مفتاحاً ومقدمة تعريفية لمن يرغب في معرفة أهمية الأخلاق في القرآن الكريم، ومكانتها فيه.

ووقع اختياري على أن يكون موضوع دراستي الحزب الستون من القرآن الكريم (حزب سبح)، لأنّ معظم المسلمين يعرفونه ويحفظونه ويتلون به في صلواتهم.

وهو موضوع جدير بالدراسة لأمور:

١ -أنّه متعلق بموضوع الأخلاق، وما أشدّ حاجة المسلمين في هذا الزمن ـ أكثر من غيره ـ إلى التخلق بمحاسن الأخلاق وترك مساوئها فإن ذلك من أعظم أسباب النهوض والصلاح العام.

٢ -أنّه يفتح باباً من التدبر لعموم المسلمين في كتاب الله تعالى.

٣ -أنّه يبين أنّ الدراسات القرآنية ليست مقتصرة على الجانب اللغوي والقرآني كما يفهمه البعض بل تتعدى ذلك إلى دراسة الأخلاق والعقائد والأحكام وغيرها.

هيكل البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة :

المقدمة وفيها :

أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وهيكل البحث، ومنهجي فيه.

الفصل الأول : تعريف الأخلاق وأنواعها ومكانتها في الإسلام ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الأخلاق.

المبحث الثاني : أنواع الأخلاق، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : مكارم الأخلاق.

المطلب الثاني : مساوئ الأخلاق.

المبحث الثالث : مكانة الأخلاق في الإسلام، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : الترغيب في الأخلاق الحسنة .

المطلب الثاني : الترهيب من الأخلاق السيئة .

الفصل الثاني : الأخلاق في حزب سبح ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الأخلاق المأمور بها .

المبحث الثاني : الأخلاق المنهي عنها .

المبحث الثالث : مناسبة هذه الأخلاق للعهد المكي .

الخاتمة : فيها أهم نتائج البحث .

منهجي في البحث :

١ -اعتمدت على المنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية.

٢ -التزمت بكتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني وفق المصحف المطبوع في مجمع الملك فهد على رواية حفص عن عاصم وأضع الآية القرآنية بين قوسين مزخرفين وبجوارها اسم السورة ورقم الآية.

٣ -خرجت الأحاديث والآثار الواردة في البحث، وجعلتها بين قوسين هلالين، وإذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فأكتفي بذلك.

٤ -عزوت الأقوال إلى أصحابها ومظانها، وجعلتها بين علامتي تنصيص.

٥ -ذيلت البحث بالفهارس العلمية والفنية التي تعين على الاستفادة منه.

الفصل الأول

تعريف الأخلاق وأنواعها ومكانتها في الإسلام

المبحث الأول : تعريف الأخلاق

لعل من الصائب تقديم الكلام على تعريف الأخلاق قبل الولوج في مطالب البحث وتفصيلها، ليميز بين أفعال الإنسان، ويتبين أنه ليس كل ما يفعله الإنسان يسمى خلقا ، أو ناتجا عن الخلق .

أولاً ـ تعريف الأخلاق لغة

الأخلاق جمع خُلُق ، وهو اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي جُبِلَ عليها .

قال ابن منظور : " الخُلُقُ، بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُونِهَا: وَهُوَ الدِّين والطبْع وَالسَّجِيَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّه لِصورة الإِنسان الْبَاطِنَةِ وَهِيَ نفْسه وأَوصافها وَمَعَانِيهَا المختصةُ بِها بِمَنْزِلَةِ الخَلْق لِصُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ وأَوصافها وَمَعَانِيهَا "[1].

وقال الفيروز آبادي : " والخُلْقُ، بالضم وبضَمَّتَيْنِ: السَّجِيَّةُ والطَّبْعُ، والمُروءةُ والدينُ"[2]

ثانياً ـ تعريف الأخلاق اصطلاحا

إنّ الأخلاق هي : تلك الصفات النفسية الداخلية ، فكما أنّ ظاهر الإنسان ينتسب إلى الخَلْق فكذلك باطنه وصفات نفسه تنتسب إلى الخُلُق .

(١) لسان العرب (10/ 80) مادة (خ ل ق)

(٢) القاموس المحيط (881) مادة (خ ل ق)

ولا بد في التعريف أن يتناول الفرق بين الأخلاق الاختيارية التي هي المقصودة بحقيقة الأخلاق وبين الغرائز التي لا يمدح الفعل بمقتضاها ولا يذم إلا إذا تعلقت به مفسدة أو مصلحة .

ومن أجمع التعريفات التي وقفت عليها تعريف الشيخ عبد الرحمن حبنكة إذ يقول : "إنّ الخلق صفة مستقرة في النفس – فطرية أو مكتسبة – ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة "[1].

مثال ذلك الكرم: هو صفة ثابتة في نفس الكريم، في بعض الكرماء طبيعة سليقية ، وفي بعضهم متكلفة مكتسبة ينتج عنها إغاثة الملهوف، وإغناء الفقير، وسد حاجة المحتاج، والهدايا الموجبة للمحبة بين المسلمين وما إلى غير ذلك .

والمثال الذي يقابله من الخلق المذموم البخل فإنّه صفة ثابتة في نفس البخيل من آثارها تضيع حق الله في المال وعدم سد حاجة المحتاج وتضييع من يعول وهكذا .

والفرق بين الأخلاق والغرائز أن الأخلاق ينتج عنها الأفعال الاختيارية التي يمدح بها الإنسان أو يذم ، وأمّا الغرائز فإنّها تختص بالأفعال التي يضطر إليها الإنسان ولا يمدح عليها ولا يذم ، مثل الأكل ، والشرب ، والبعد عن المضار ، والقرب من المنافع ، فإنّ الأكل ينتج عن غريزة الجوع ، والبعد عن المضار ينتج عن غريزة حب السلامة ، والقرب من المنافع ينتج عن غريزة الحرص على ما ينفع الإنسان .

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها (1/ 10)

وأيضاً تمتاز الأخلاق بأنّها في الأعمال الأخروية والدنيوية والغرائز ليست كذلك إذ هي تختص بالأمور الدنيوية التي تدفع إليها الضرورة .

المبحث الثاني : أنواع الأخلاق

لما كان الإنسان لا بد له في اجتماعه وانفراده من أن يتحلى بأخلاق وأن يتخلى عن أخرى، وإلا فلا تستقيم له حياة، فمثلا في حالة الاجتماع لا بد له من أن يتصف بالرحمة لغيره وحب الخير لهم وغيرها من الأخلاق المتعدية النفع وإلا لن يستقيم الاجتماع.

وفي حالة الانفراد مثلا لا بد له أن يتصف بالشجاعة وأن يتخلى عن الجبن وإلا فلن تستقيم له حياته.

ومن هنا لزم تقسيم الأخلاق إلى أخلاق مأمور بها شرعا، وهي التي سماها العلماء مكارم الأخلاق، وإلى أخلاق منهي عنها وهي التي سماها العلماء مساوئ الأخلاق.

المطلب الأول : مكارم الأخلاق

تطلق مكارم الأخلاق ويراد بها : الصفات التي ينتج عنها ما يقع عليه المدح من أفعال الإنسان التي ليست موجبها الغريزة ، وبعضها يدرك بالشرع فقط ، وبعضها يدرك بالعقل والشرع معا ، وهي التي ورد مدح المتصف بها في الشرع وعند عقلاء الناس .

ومن مقاصد الرسالة المحمدية إتمام مكارم الأخلاق .

قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : "إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(١)، وذلك بتنبيه الناس إلى الصفات الحسنة ليتصفوا بها ، وإلى ما يقتضيه ذلك من ترك لمساوئ الأخلاق التي تناقض مكارمها ليجتنبوها .

ومن الأحاديث المرغبة في حسن الخلق قول النبي – صلى الله عليه وسلم – " إنّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا "(٢)، ولكل خلق كريم ما يناقضه من مساوئ الأخلاق ، فمن أمثلة مكارم الأخلاق الصدق ، والأمانة ، والشجاعة ، والجود ، والإحسان ، والبذل للآخرين ، وحسن الجوار ، وغيرها مما ورد في الشريعة التنبيه عليه .

وكل هذه الأخلاق المذكورة ورد فضلها في الكتاب والسنة .

وقد أُلِّفَتْ فيها كتب خاصة منها : مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ، ومكارم الأخلاق للخرائطي ، ومكارم الأخلاق للطبراني وغيرها .

ولعل اكتفاء غالبهم ببيان مكارم الأخلاق في مؤلفاتهم اعتمادا على أن من لوازمها مساوئ الأخلاق لما تقدم من أنه لا يوجد خلق كريم إلا وله ما يناقضه من الأخلاق الرذيلة.

والخلاصة : أن مكارم الأخلاق تختص بالصفات النفسية الثابتة في نفس الإنسان ، والتي ينتج عنها أفعال محمودة سواء في الشرع فقط أو فيه مع العقل .

---

(١) أخرجه أحمد (8952)، والبيهقي في الكبرى في باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها (10/ 323) برقم (21301)، والشهاب في مسنده (2/ 192) برقم (1165).

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، برقم (2018) وقال: " حديث حسن غريب".

وأن مكارم الأخلاق هي الأصل في البناء الأخلاقي ، ويأتي البعد عن مساوئ الأخلاق في الدرجة الثانية بعدها ، أو كالفرع لها ؛ لأنها ليست أصلية ، وإنّما هي من لوازم مكارم الأخلاق ؛ لأنّ كل خلق سني يختفي تحته خلق دنيء يناقضه ، وقد يقتصر في مفهومها على أنه ما يناقض مكارم الأخلاق.

المطلب الثاني : مساوئ الأخلاق

تقدم في المطلب السابق أن مساوئ الأخلاق هي كل خلق دنيء ناقضَ خلقا سنيا كريما، وقد جاء الشرع الكريم ببيان الأخلاق السيئة بقدر لا يقل عن بيانه للأخلاق الكريمة، بل شدد في ذلك وبين أثر هذه الأخلاق السيئة على الدين والعبادة والمجتمع .

ومن الأحاديث التي جاءت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في ذم الأخلاق السيئة قوله – صلى الله عليه وسلم – : "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[1]، وقوله – صلى الله عليه وسلم – : "لا يدخل الجنة قاطع"[2] .

ومساوئ الأخلاق هي الوجه الآخر من الكلام على الأخلاق في الإسلام ، فلا يصح التخلق بأخلاق حسنة إلا إذا اجتنب ما يقابلها من السيئة لأنها بذلك تكون منقوضة ولاغية ولا وجود لها .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (91) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب إثم القاطع، برقم (5984) ، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطعها، برقم (2556).

وأهمية معرفة مساوئ الأخلاق لا تقل أهمية عن معرفة مكارمها؛ لما تقدم ذكره ؛ ولأنّ الشرع لم يهمل أيا منهما ، فكما أن الشرع قد اهتم بالأخلاق الحسنة وقررها تقريراً واسعاً وكبيراً فكذلك الأمر في الأخلاق السيئة التي يجب اجتنابها فقد نص عليها وبينها بياناً شافياً.

ولم يفردها بالتأليف أحد كما هو شأن المكارم، سوى ما صنع الإمام الخرائطي حيث ألف كتاباً سماه مساوئ الأخلاق ، ولعله قصد بذلك التنصيص على مساوئ الأخلاق ، وإن كانت مفهومة من مكارم الأخلاق ، لكن لما كانت مستقلة في كثير منها بالتعريف وبيان الحقيقة رأى أنّ من الضروري بيانها مستقلة وعدم الاكتفاء بأخذها من المفهوم المخالف لمكارم الأخلاق كما فعل سائر المؤلفين، أو بتضمينها المؤلفات الخاصة بمكارم الأخلاق .

ويمكن أن تصنف المؤلفات في الكبائر كلها في الأخلاق السيئة وخاصة إذا أخذناها بمعنى الخلق العام ، الذي يعني كل صفة فعلية أو تركية مثل : كتاب الكبائر للإمام الذهبي، وكتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر المكي وغيرها .

المبحث الثالث : مكانة الأخلاق في الإسلام

إنّ شأن الأخلاق في الإسلام شأن عظيم يدل على ذلك النصوص التي جاءت في الترغيب في حسن الخلق على العموم والخصوص ، والنصوص التي جاءت في الترهيب من سوء الخلق، وهذه أيضا جاءت على سبيل العموم، وعلى سبيل خصوصِ أعمالٍ خاصة، ولقد شدد الإسلام في أمر الأخلاق والآداب ؛ وذلك لأهميتها في صلاح النفوس، وتحقيق العبودية ، وأيضا إقامة المجتمع ؛ لأنه لا عبودية دون أخلاق ، ولا مجتمع دون أخلاق ، فمن لا

أخلاق له لا يمكن أن يعيش في المجتمع ، وإنما حظه من الاستفادة من الدين والمجتمع بقدر حظه من تحصيل الأخلاق .

ولبيان هذه المسائل قسمت هذا المبحث إلى مطلبين :

المطلب الأول : الترغيب في الأخلاق الحسنة

جاءت نصوص كثيرة ترغب في حسن الخلق على العموم ، ونصوص ترغب في خصوص بعض الأخلاق؛ نظرا لأهميتها ، سأحاول في هذا المطلب ذكر ما تيسر لي من القسمين :

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : 9] .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

وهذا الحديث لخص أهمية الأخلاق في الإسلام وأعطاها أهمية أكثر حيث جعلها من مقاصد رسالته – صلى الله عليه وسلم – ، وهذا ما يبين لنا سبب مجيء نصوص كثيرة في الأخلاق ، الأمر الذي جعل العلماء يفردونها بالتصنيف.

وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إن الله كريم يحب الكرم ، يحب معالي الأخلاق ، ويكره سفسافها"[1] .

- وعن أسامة بن شريك قال : " شهدت الأعراب يسألون النبي – صلى الله عليه وسلم– ... قالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي العبد؟ قال: خلقٌ حسنٌ"[1].

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (1/ 111) برقم (151– 152)، وقال : " صحيح الإسناد " .

وفي هذا الحديث حرص النبي – صلى الله عليه وسلم – على تعليم الوافدين أصول الإسلام وجوامعه فكان حسن الخلق على رأسها .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً "[٢].

- وعن جابر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إنّ من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً" .
- وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : "من ترك الكذب وهو باطل بُني له في ربض الجنة ، ومن ترك المِراء وهو محق بُني له في وسطها ، ومن حسن خلقه بُني له في أعلاها"[٣].
- وعن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – قالت : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ"[٤] .
- وعن أبي الدرداء عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : "ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق"[١].

---

(١) أخرجه ابن ماجة في أبواب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء، برقم (3436).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، برقم (4682) ، والترمذي في أبواب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم (1162) وقال : حسن صحيح ، وأحمد برقم (7402) و (10106).

(٣) أخرجه الترمذي، في أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ماجاء في المراء، برقم (1993)، وقال : " حَدِيثٌ حَسَنٌ " ، وابن ماجه في أبواب السنة، باب في اجتناب البدع والجدل، برقم (51).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، برقم (4798).

وهذه النصوص كافية في بيان مكانة الأخلاق في الإسلام وأنّها محورية في التدين وليست هامشية وأنّها من أفضل القربات عند الله .

المطلب الثاني : الترهيب من الأخلاق السيئة

قال الله تعالى : ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ [الشمس : 10] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"(٢).

فهذا الحديث جاء فيه التحذير من خصال المنافقين وأفعالهم ، والمراد هنا النفاق العملي وليس الاعتقادي ، قال محمد فؤاد عبد الباقي : " الذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه إنّ هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم لا أنّه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر (كان منافقا خالصا) معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال "(٣) .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، برقم (4799) ، والترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، برقم (2002) وقال : " حديث حسن صحيح ".

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (34) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (58).

(٣) هذا النص لمحمد فؤاد عبد الباقي عند تعليقه على هذا الحديث في صحيح مسلم (58) .

- وعن أبي ذر رضي الله عنه أنّه سمع النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول : "لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك"(١).
- وعن أبي الدرداء، أنّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : "ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإنّ الله ليبغض الفاحش البذيء"(٢).
- وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إنّ من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه"(٣).
- وعن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال :"لا يدخل الجنة قاطع"، قال ابن أبي عمر: قال سفيان : يعني قاطع رحم .
- وعن أنس بن مالك : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : "لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال"(٤) .

وهذه النصوص كافية في الترهيب من الأخلاق السيئة ، والتحذير منها ، وبيان مكانة الأخلاق في الإسلام ، وذلك بالحث على فعل المكارم وترك المساوئ .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن السباب واللعن، برقم (6045) .

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، برقم (2002)، وقال : "حسن صحيح".

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، برقم (5973) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (90).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الهجرة، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث"، برقم (6076) ، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، برقم (2559).

الفصل الثاني

الأخلاق في حزب سبح

المبحث الأول : الأخلاق المأمور بها

سبقت الإشارة إلى أنّ الأصل في الأخلاق هو الأخلاق المأمور بها لأنّها أخلاق فعلية وجودية ولأنّها تدخل في مكون الأخلاق ، وأنّ الأخلاق المنهي عنها تأتي في الدرجة الثانية بعد المأمور بها لأنّها عدمية وليست وجودية في غالبها ، ثانياً : أنّ الأخلاق المأمور بها في لحن الخطاب تتضمنها ، ومن المعلوم عند الفقهاء أنّ الأمر بالشيء نهي عن ضده .

وقد بلغ عدد الأخلاق المأمور بها في حزب سبح بعد حصرها ثلاثة عشر خلقاً ، وبعضها تكرر الأمر به في الحزب نفسه ، وهي كالتالي على سبيل الإجمال :

التزكية ، والخشية ، والنظر إلى المخلوقات ، وعتق الرقاب ، والصبر ، والتواصي به ، والرحمة، والتواصي بها، والإعطاء، وإيتاء المال، وإطعام الطعام ، والإخلاص، والتواصي بالحق .

وكلها تدور على خمسة محاور :

المحور الأول : العبودية لله المتمثلة في الإخلاص له

وهو أس الأخلاق والصفات النفسية التي ينبغي للمسلم أن يتصف بها ؛ لأنّ القسم الأعلى والأسمى من الأخلاق ما كان فيه معاملة الله وتحقيق العبودية له .

ويدخل في العبودية لله تعالى : الإخلاص ، والنظر في المخلوقات المؤدي إلى معرفة الله تعالى.

المحور الثاني : تطهير الذات والنفس

لأنّ بتطهيرها تتأهل للعمل الصالح ، ولا تعاند في القيام بأي عمل ، وذكر الله يصير لها غذاء ضروريا وهذا يتجلى في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:9-10] ولا يمكن لأي نفس لم تتطهر من المعاصي ومن أمراض القلب ، ومن قاذورات الذنوب أن تكون نشطة في أداء العبادات ، وهذا معلوم عند أرباب التزكية مثل الإمام ابن القيم وغيره .

المحور الثالث : تطهير الممتلكات

من المعلوم أن من أعظم ما يؤثر على تزكية النفس وتطهيرها هو طهارة الممتلكات ومن أهمها المطعم فإن المطعم إذا خالطه الحرام أدى ذلك إلى فساد الأعضاء فلا يمكنها أن تدوم على الطاعة وقد جاء في الحديث : "إنّه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به "[1] ، ولذلك اهتم الإسلام بتطهير الممتلكات من حقوق الله تعالى ومن حقوق العباد.

المحور الرابع : الإحسان لغيرك

وهذا المبدأ القرآني من أهم الأصول الأخلاقية وذلك لأمور :

1 ـ الدعوة إلى الله ؛ إذ لا يمكن أن يدعو إلى الله من لا يحسن إلى عباد الله ولو دعاهم ما استجابوا له .

(١) أخرجه الترمذي في أبواب السفر، باب ماجاء في فضل الصلاة برقم (614)، وقال: حديث حسن غريب، وأحمد برقم (14441).

2 ـ مدار ابتلاء الناس ببعضهم كما تقتضيه الحكمة الإلهية على التعامل بالإحسان إلى بعضهم ، وإظهار الرأفة والرحمة إلى بعضهم ، وأنك كما تعامل الناس يجازيك الله ، والجزاء من جنس العمل، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

3 ـ إقامة المجتمع السعيد الذي هو من مقاصد الإسلام العليا وهذا الأمر متوقف على إحسان بعضهم إلى بعض ؛ وذلك لأن جميعهم محتاج إلى جميعهم على اختلاف التخصصات فيجب على كل الناس الإحسان إلى بعضهم بعضاً ، وجميعهم في حاجة إلى الإحسان فإنّهم ما بين طفل ضعيف أو شاب محتاج للتعلم أو كهل محتاج إلى المتابعة أو شيخ كبير يحتاج إلى إحسان الجميع . ولا يمكن أن يقوم المجتمع دون إحسان بعضهم إلى بعض .

المحور الخامس : الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة

من المعلوم أن التعلق بالدنيا من أعظم موانع إقامة العبودية لله وهو المقصد الأعظم من وجودنا أصلا في هذه الدنيا ، ومن هنا جاء الإسلام بالأمر بالزهد في الدنيا ، والحض والأمر بالرغبة في الآخرة .

وقد جاء هذا المحور في حزب سبح في عدة صور منها :

1 ـ ذم إيثار الدنيا على الآخرة .

2 ـ بيان أنّ الآخرة أفضل وخير من الدنيا .

3 ـ بيان ما أعده الله للمؤمنين في الآخرة .

وبعد هذا العرض سأكتفي هنا بذكر الأخلاق المأمور بها في حزب سبح مع ذكر دليلها وهي كالتالي :

1 ـ الخشية وذلك في قوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى : 10]

2. التزكية، وذلك في قوله تعالى :﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى : 14]، وقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[الشمس:9]

3 ـ الرحمة بالضعفاء، وذلك في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ [الفجر : 17-19]

4. عتق الرقاب، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد : 13]

5. إطعام الطعام، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 14-16] .

6 . الصبر والتواصي به، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد : 17].

7 .الرحمة والتواصي بها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد : 17]

8 ـ الإعطاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ [الليل : 5]

9 . إيتاء المال، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل : 18]

10 ـ الإخلاص، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل : 19ـ 20].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : 5]

11 . التواصي بالحق، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : 3]

المبحث الثاني : الأخلاق المنهي عنها

بلغت هذه الأخلاق عند التعداد أحد عشر خلقاً حسب اجتهادي في استخراجها فسأذكرها مجملة ثم أتناولها بشيء من التفصيل وهي :

1 ـ إيثار الدنيا على الآخرة .

2 ـ حب المال .

3 ـ البخل .

4 ـ التدسية وهي أجمعها لمقابلتها للتزكية .

5 ـ قهر اليتيم .

6 ـ نهر السائل .

7 ـ ودع اليتيم .

8 ـ عدم الحض على إطعام المساكين .

9 ـ الغيبة .

10 ـ النميمة .

11 ـ الحسد .

أولاً ـ إيثار الدنيا على الآخرة

وذلك في قوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: 16-17] وهذا الخلق منهي عنه في عدة نصوص أخرى ، وهو معنى الزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة .

ثانياً ـ حب المال

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : 20] هذا أيضاً من وجوه الرغبة في الدنيا وإيثارها ، لأنّه ليس المذموم الرغبة في الدنيا المجردة ، وإنّما المذموم الرغبة التي تؤدي إلى إيثارها على الآخرة وأعمالها.

ثالثاً ـ قهر اليتيم

وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : 9] والنهي عن هذا الفعل فيه لفت للنظر إلى الفئات الضعيفة في المجتمع ، والاعتناء بها ، فالمجتمع يقوم عليها ؛ لأنّه إذا قهر اليتامى أوجب ذلك غضب الله على الجميع ، وذلك يؤدي إلى فساد المجتمع .

ولعل من أصول الأخلاق الاجتماعية التي يمكن أن تستنبط من النهي عن هذا الخلق هي العناية بأضعف من في المجتمع ، ومن لا حامل له في المجتمع يجب أن تحمله وإلا رجع ذلك بالفساد على المجتمع .

رابعاً ـ ودع اليتيم

وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الماعون : 2] بمعنى يدفعه ، وكأن القرآن الكريم يقول : من هذا فعله فلا خير فيه ، ولا يمكن أن يكون مؤمناً بالله وبيوم الدين ، فكيف يؤمن بالله وبيوم الدين من لا يرحم أضعف شيء في المجتمع ، ولا يؤدي حق اليتامى ، ولا خير فيه لنفع نفسه حتى رضي لنفسه بأكل مال اليتيم ، وقهره ، ودفعه إذا توجه إليه .

خامساً ـ عدم الحض على طعام المسكين

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون : 3] نلاحظ تركيز القرآن في الفترة المكية على مسألة الإطعام وجعلها من الأخلاق المحورية ، وذلك من لا رحمة له بغيره لا يستحق رحمة الله فالرحمة مشروطة بالرحمة ، والجزاء من جنس العمل ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –"الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء "[1].

سادساً وسابعاً ـ الغيبة والنميمة

وهذان الخلقان من أسوء الأخلاق السيئة المتعدية إلى غيرك وهما لم يردا بالنص في هذا الحزب من القرآن وإنما وردا بالمعنى وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾

(١) أخرجه أبو داوود في كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (4941) ، والترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، برقم (1924)، وقال " حسن صحيح " .

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : 4-5] ذكر المفسرون أنها كانت تذهب بالغيبة والنميمة للإفساد(١).

وقد نهي عنهما في نصوص من الشرع كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : 12] ومنها قول النبي – صلى الله عليه وسلم – :" لا يدخل الجنة قَتَّاتٌ "(٢) .

ثامناً ـ الحسد

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : 5] والحسد من الأخلاق الإبليسية وهو سبب لعنته وعدم سجوده إذ حسد آدم على ما أوتي . ولذلك نهي عنه ابن آدم في القرآن نهيا قاطعا ، وهو من شر الأخلاق التي يمكن أن يتصف بها ابن آدم .

تاسعاً ـ نهر السائل

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : 10] والسائل يشمل أي طالب سواء أكان طالب علم وهو أشرف من غيره أم طالب ما يتقوت به فلا يجوز نهر السائل بل الواجب إمّا إعطاؤه سؤله إن استطيع لذلك وإلا يقال له كلمة طيبة فإنّ الكلمة الطيبة صدقة.

(١) انظر: تفسير الطبري: 24/ 720، التفسير البسيط: 24/ 414 ، تفسير القرطبي: 22/ 550 .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، برقم (606)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، برقم (105).

عاشراً ـ البخل

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [الليل : 8-9] والبخل من الأخلاق التي اتفقت العرب على ذمها في جاهليتها ، وجاء الإسلام بتأكيد هذا المعنى لأنّ غاية البخل وحقيقته منع الناس مما هم في حاجة إليه في العاجل وعدم الثقة في موعود الله تعالى في الآجل .

حادي عشر : التدسية

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : 10] وهذا الخلق مقابل لخلق التزكية المتقدم، وهو جماع الأخلاق الفاسدة ؛ لأن معناه إهمال النفس ، وعدم تهذيبها ، وتربيتها، وترويضها على الخير ، وعدم إصلاح باطنها .

المبحث الثالث : مناسبة هذه الأخلاق للعهد المكي

إنّ الأخلاق هي إحدى تجليات العمل بالعقيدة الإسلامية؛ لأنّ مدارها على الإيثار وإيصال النفع إلى غيرك، وهذا لا يتأتى على وجه الكمال إلا من مؤمن واثق بربه؛ لأنّ الذي يتصدق إنّما يتصدق لثقته بربه أنّه يثيبه ويعوضه بأحسن من ذلك، وأنّ ذلك الفعل يجلب له رضا ربه، ولذلك اشتد اهتمام الشرع الحكيم بها في العهد المكي بالذات، وقرنت مع العقيدة كما مر ذكره في قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣ ﴾ [الماعون: 1-3] .

والأمر الآخر أنّ التدين بالدين الحنيف في كثير من أحكامه ومظاهره لا يكون إلا بالاجتماع والتعاون وهذان لا يتأتيان إلا بواسطة الخلق الحسن، ولذلك ركز الشرع الحكيم على الأخلاق في العهد المكي في بداية الإسلام وقرنها بالعقيدة.

ومن الأخلاق التي كانت مشتهرة عند أهل الجاهلية واشتهر عنهم مدح أهلها والمتمسكين بها الأخلاق المتعلقة بنفع غيرك، وذلك مثل كقول السيدة خديجة – رضي الله عنها – في النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق "[1].

فهذه الأخلاق التي كانت راسخة عند أهل الجاهلية ، وكانوا يُجِلُّونَ من يعمل بها ، وربما كانوا يتداولونها في أشعارهم . جاء الإسلام بتقريرها ، وتأكيدها ، وتفصيلها ، والزيادة عليها ، مصداقا لقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وقد أخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابه عليها ، لأنّه لا يصلح دين المرء إلا إذا صلحت نفسه ولا تصلح نفسه إلا إذا كان فيه الخير المتعدي . وأيضاً فلا يمكن أن يقوم المجتمع دون الأخلاق المتعدية النفع إلى غيرك . فلذلك ركز عليها النبي – صلى الله عليه وسلم – في تربيته الأولى لصحابته ، وربما قبل أن يأمرهم بالصلاة التي هي خاصة للمرء في نفسه .

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، برقم (3).

خاتمة

وبعد هذه الجولة البحثية في حزب سبح أستخلص بعض النتائج فيما يلي :

1 ـ قوة ارتباط الأخلاق بالعقيدة، حيث إنّ الإسلام ركز عليها من البداية كما في قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ [الماعون: 1 – 3] .

2 ـ توازن التربية العقدية والأخلاقية في الإسلام ، فلا يفترقان في الخطاب الإسلامي.

3 ـ ذكر في حزب سبح الأخلاق التي هي الأساس في تكوين الفرد والمجتمع مثل : التزكية ، وإطعام الطعام ، والعناية باليتيم ، واجتناب الحسد وغيرها .

4 ـ مكانة الأخلاق في تكوين الفرد المسلم ، وكذلك المجتمع المسلم فلم يكن الإسلام يؤخر هذا على هذا .